*الاستعارة في القرآن والسنة (1)*

*بحث فى دراسات بلاغيه*

إعداد أ/ أحمد عبد الحميد مهدي

*قسم اللغة العربية*

*كلية اللغات – جامعة المدينة العالمية*

*شاه علم – ماليزيا*

*ahmed.mahdey@mediu.ws*

**خلاصة ـــ هذا البحث يبحث في الاستعارة في القرآن والسنة**

**الكلمات المفتاحية : القرآن الكريم ، الاستعارة ، الاستعارة القريبة**

1. **المقدمة**

**الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، سوف نتحدث في هذا المقال عن الاستعارة في القرآن والسنة**

1. **عنوان المقال**

**وإذا ما انتقلنا إلى الاستعارة، نجد أثر بلاغتها في القرآن الكريم، وفي حديث النبي  نجد عجبًا، فمن باب الاستعارة التصريحية، نجد قوله : ((خير الناس رجل ممسك بعنان فرسه في سبيل الله، كلما سمع هيعة طار إليها))، ونلحظ أن قوله: ((طار إليها))، مستعار للعدْو السريع، وهو من بابه، فكلاهما قطع للمسافة.**

**ولكن الطيران أسرع من العدو وأعلى منه في هذا الجنس، وواضح أن هذه الاستعارة القريبة من الحقيقة، كشفت ما أراد البيان كشفه من فرط استجابة هذا المجاهد بداعي الله، وأنه مندفع في أمر ربه اندفاعةً فائقةً، وانظر إلى قوله: ((ممسك بعنان فرسه))، وتأمل ما وراء ذلك من فرط التأهب والترقب، وانظر إلى كلمة: ((كلما))، وما وراءها من سرعة الاستجابة، وكأنها تأكيد للمعنى، في قوله: ((ممسك))، وكأن هذا وذاك يمهد لكلمة: ((طار))، ويهيئ النفس لاستيعاب صورة مجاهد يطير؛ تلبيةً لأمر ربه، ووقعت الاستعارة في هذا السياق موقعًا حسنًا، لا تجدوه في مثل قول الشاعر:**

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| **وطِرتُ بمُنْصُلي في يَعْمَلاتٍ** | **\*** | **دوامي الأيْدِ يخبطنَ السّريحا** |

**والمنصل: هو السيف، واليعملات: هي النوق المطبوعة على العمل.**

**وقول الآخر:**

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| **لو يشا طار به ذو ميعة** | **\*** | **لاحق الآطال نهد ذو خصل** |

**جمع خصلة، وهو الشعر المجتمع، ولاحق الآطال: هي بمعنى ضامر الخاصرة؛ وذلك لفقدان التوطئة، والتمهيد الذي هيَّأ لهذه الاستعارة، ومثل هذه الفروق الدقيقة التي تشبه الفتات النفيس، يتفاضل البيان.**

**ومن شواهد هذا الضرب من ضروب الاستعارة، ما جاء في قول الله تعالى، في شأن بني إسرائيل: {ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ ﮠ ﮡ ﮢ ﮣ ﮤ ﮥ ﮦ ﮧ ﮨ ﮩ ﮪ ﮫ} [الأعراف: 168]، فها هنا ترى التعبير عن التفرقة بالقطع، والقطع إنما يكون للأشياء المتماسكة كالشجر، أو الخشب، أو الثوب، وما شابه ذلك، وإنما يقال في الأقوام: تفرقوا، فقد استعير التقطيع للتفريق، وهي استعارة قريبة، قال عبد القاهر، في: (أسرار البلاغة): "إن القطع إذا أُطلق فهو لإزالة الاتصال من الأجسام التي تلتزق أجزاؤها، وإذا جاء في تفريق الجماعة وإبعاد بعضهم عن بعض، كقوله تعالى: {ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ}، كان شبه الاستعارة، وإن كان المعنى في الموضعين على إزالة الاجتماع ونفيه، فإن قلت: قطع عليه كلامه، أو قلت: نقطع الوقت بكذا؛ كان نوعًا آخر". انتهى كلام عبد القاهر.**

**وبما أن هذه الاستعارة التي تُشبه الحقيقة، أو التي هي شبه الاستعارة -كما يقول عبد القاهر- قد أثرت المعنى بما لا تجده في مثل قولنا: وفرقناهم في الأرض أممًا؛ وذلك لأن التقطيع الذي مُني به اليهود يشير إلى معنًى نفسيٍّ دقيق، هو هذه الوشائج والعلائق التي تقوم بين الجماعة القائمة في مكان واحد، والمجتمعة في أرض واحدة، والتي هي أشبه بالُّلحمة في الثوب.**

**وقوله: {ﮜ}، يشير إلى تقطيع هذه الصلات والروابط المتلاحمة، والتي تربط الأخ بأخيه، والوالد بولده، والصاحب بصاحبه، وفي ذلك تصوير لآثار هذا التفريق وفعله في نفوسهم، وربما لا نجد هذا في كلمة: فرَّقناهم.**

**وقد جسد القرآن معنى جهات روابط النفوس وتواصلها في هذه الكلمة، في تصوير حسن وسياق حافل بمشاعر اللهفة والندم، في قوله تعالى: {ﯱ ﯲ ﯳ ﯴ ﯵ ﯶ ﯷ ﯸ ﯹ ﯺ ﯻ ﯼ ﯽ ﯾ ﯿ ﰀ ﰁ ﰂ ﰃ ﰄ ﰅ ﰆ ﰇ ﰈ ﰉ ﰊ ﰋ ﰌ ﰍ ﰎ ﰏ} [الأنعام: 94].**

**وانظر إلى قوله تعالى: {ﰈ ﰉ ﰊ}، وكيف كان هذا الاستئناف، وهذا القطع في بناء الجملة، تهيئة لتجسيد هذا المعنى وتركيزه في كلمة: {ﰉ ﰊ}.**

**قال الشريف الرضي: "لا فصائلَ هناك عن الحقيقة فتوصف بالتقطع، وإنما المراد: لقد زال ما بينكم من شبكة المودة، وعلاقة الألفة التي تُشبه لاستحكامها بالحبال المحصبة، والقرائن المؤكدة".**

**ومثل هذا تجده في قوله تعالى، في شأن سبأ الذين كان لهم في مسكنهم آية: {ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ} [سبأ: 15]، والذين كانوا يتواصلون في بلدة طيبة، وكلاءة رب غفور: {ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ ﮠ ﮡ ﮢ} [سبأ: 19]؛ لأنه يقال: مزق الثوب، ولا يقال مزق القوم، وإنما يقال: فرقهم، ولما كان هذا التفريق كأنه نزعٌ لكل فرقة من هذه الجماعة، كما تُنزع القطعة من الجسم الحي المتواصل؛ عبر عنه بالتمزيق؛ ليشير إلى المعاناة التي عاناها هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم بهذا التشتيت، وهذا التفريق.**

**وكأن علائق الود وصلات القربى حبال ممدودة بين هذه الجماعة، فجاء التفريق كأنه شق، وتمزيق، وتقطيع لهذه الأوصال، وهذا المعنى تجده ثاويًا وراء كلمة: {ﮠ}، ولا تجد شيئًا منه لو قال: فرقناهم.**

**وخذ عندك مثلًا قوله تعالى: {ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ ﮠ ﮡ ﮢ ﮣ ﮤ ﮥ ﮦ ﮧ ﮨ ﮩ ﮪ ﮫ ﮬ ﮭ ﮮ ﮯ} [الأنعام: 122]، وقد عمدت إلى هذه الصورة؛ لأنها من الشواهد المشهورة، والمراد بالميت هنا: الضال، فقد شُبه به واستعير له، كما أن المراد بـ"أحييناه": هديناه، والآية تذكر حالين أو مرحلتين من مراحل حياة الإنسان؛ المرحلة الأولى كان فيها ميتًا، وهو في الثانية حيّ، والواقع أن هذا الإنسان كان حيًّا في الحالين، حياة بمعناها المتعارف، ولكنه لما كان منطفئ الفطرة، معطل الإدراك جُعل ميتًا، وكأن غاية الحياة إنما هي في استقامة الفطرة وسلامة النظر الراشد إلى معرفة الحق والخير.**

**والموت هنا له مفهوم جديد، ربما كان انغماس النفس في ظلمة الحيوانية، وبقاء الروح مكفوفة الإدراك، تخبط في الأرض من غير غاية نبيلة تسعى إليها؛ لتسعد بها سعادة أبدية، وواضح أن الحياة في هذه المرحلة حياة وموت معًا؛ لأنه يحيا ويتقلب كما يتقلب كل حي، ولكن هنا معنًى قلبي ينقصه، فسلب معنى الحياة من هذه الحياة.**

**والضلال أيضًا، له مفهوم جديد لهذه الاستعارة؛ لأنه لم يعد ضلالًا وإنما صار موتًا، كما أن الموت له أيضًا مفهوم جديد؛ لأنه ليس إبطالًا للأحوال الجسمية، وإنما هو إبطال للطاقات الروحية، وكذلك الاستعارة في: {ﮚ}، ليست الحياة فيها هي الحياة المألوفة، وإنما هي الهداية التي صارت بدورها حياة، أو ضربًا من الحياة غير مألوف؛ لأنها تعني خلوص النفس مما يُثقل نهوضها الثاني، التي تهتف بها فطرتها الطاهرة النازعة نزوعًا دائمًا إلى الحق، والمثل الأعلى.**

**فالاستعارة هنا جددت معاني الكلمات وأثرتها، وأفرغت فيها فكرًا جديدًا، وحِسًّا جديدًا، فصرنا نرى حياةً ولكنها ليست حياةً بالمعنى المتداول، ونرى هدايةً ولكنها ليست هدايةً بالمعنى المتداول أيضًا، وكأننا أمام حقيقة ثالثة ليست المستعار منه، ولا المستعار له، أعني: ليست الطرفين اللذين زاوجنا بينهما، وإنما هي شيء ثالث، ولَّده هذا التزاوج والتداخل الذي أدمج المستعار له في المستعار منه، ولكنه لم يشكله تشكيلًا كاملًا في صورة المستعار منه، وإنما بقي بين بين.**

**ومن الاستعارات التي بُنيت على التمثيل عند عبد القاهر، أو التي يكون فيها المستعار له أمرًا معقولًا، والمستعار منه أمرًا محسوسًا -كما يقول الخطيب- قوله تعالى: {ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ ﭟ ﭠ ﭡ ﭢ ﭣ ﭤ ﭥ ﭦ ﭧ ﭨ} [الحجر:92- 95]، والصدع يكون في الأجسام، ومنه: صدع الزجاجة، وسُمي الفجر صديعًا؛ لأنه يصدع الظلمة ويشقها، والمراد كما يقول الزمخشري: "فاجهر به وأظهره، يقال صدع بالحجة: إذا تكلم بها جهرًا، كما يقال: صرَّح بها".**

**فالصدع مستعار للجهر والإبانة، والعلاقة هي أن الصدع تنفصل به الأجزاء، وتبين مقاطعها، فكذلك الإبانة والجهر تتحدد بهما الحقائق وتنكشف الأغراض، ثم إنك ترى التمييز والتحديد في الصدع بعينك، وترى التحديد والتمييز في القول بفهمك وقلبك، فالذي في المشبه ليس هو الذي في المشبه به، وإنما هو شيء منه بسبيل؛ وهذا هو معنى التأول عند عبد القاهر، وفي هذه الاستعارة معنًى فوق ما تراه من تجسيد هذه الحقيقة الروحية، وهو الكشف المبين عن حقائق ما جاء به النبي محمد .**

**وصيرورته في هذه الصورة المحسوسة، وهو الصدع، والشق الماثل في الأجسام، وهذه الاستعارة فيها فوق ذلك الإشارة إلى وجوب الإعلال الواضح بكلمة الله في كل أمر من الأمور، وإن كان في هذا مصادمة لما تعارف عليه الناس، ولما ألفوه في حياتهم وسلوكهم وعاداتهم.**

**والأمر بالصدع هنا، يعني: زلزلة هذا المألوف، وشقه، ومصادمته، مصادمة تصدعه وتهدمه، ما دام قائمًا في وجوده على غير منهج الله، وهكذا فعل الرسول الكريم  فقد هدم ما ترسَّخ من عقائدهم وأعرافهم، وما ترسخ في قلوبهم وضمائرهم، ثم إن هذه الاستعارة من وجه آخر، تُرمى في وجوه هؤلاء الذين يُمالئون في كلمة الله، وحدود حلاله وحرامه بمصانعة الجهلة والطواغيت، وتأييد ضلالاتهم وانحرافاتهم، وإعطائها صبغة قرآنية، وكذلك الذين يُصانعون العقائد والمذاهب، وما أكثرهم في عصرنا، فيتساهلون في تحديد وجهة نظر القرآن الكريم، أو يُلبسون في بعض جوانبها؛ ليدنوا هذه النظم من القرآن، أو يدنوا القرآن منها، وهذا وغيره يُخالف الإبانه الكاشفة التي جسدتها كلمة: {ﭞ}.**

**وانظر إلى قوله تعالى: {ﭟ ﭠ}، كيف عبر عن الدين وأمر الله بهذه الصيغة التي تُبعد عن هذا الأمر عنصر البشرية، وذاتية محمد .**

**ويقرب من هذه الاستعارة في بعض دلالالتها، قوله تعالى: {ﭩ ﭪ ﭫ ﭬ ﭭ} [الشورى: 52]، والمراد ليس هو الصراط الذي تراه عينك طريقًا واضحًا مستقيمًا، وإنما المراد حقائق الدين ومنهج القرآن، وتجاوبه مع الفِطرة الصحيحة، واستقامته في نفوس أهل الحق واليقين، كأنه طريق واضح يصف منهجًا بينًا، ويحدد المعالم تحديدًا مضيئًا، فالموقن بهذا الدين لا يبحث عن خطة يمضي في حياته عليها، وإنما الطريق بين يديه وهو طريق مستقيم، وما عليه إلا أن يمضي، وقد تكررت هذه الاستعارة في القرآن؛ لتنفي عن هذا الدين التلبيس والغموضَ الذي يثقل كثيرًا من الديانات، والدين هنا صراط مصروط، لا عوجَ فيه ولا غموض، وتجد هذا الصراط مضافًا، في مثل قوله: {ﭰ ﭱ ﭲ ﭳ} [الأنعام: 126]، ففي هذه الإضافة، تأكيد لمعنى أن حقائق هذا الدين لا تلتبس، ولا تُلتبس بغيرها، وأنه سيظل في أصوله نقيًّا خاليًا من الآثار البشرية التي لا يجوز أن تختلط به؛ لأنه ينفيها ويكشفها بوضوح الربانية فيه.**

**وقوله: {ﭱ ﭲ}؛ فهو خط واضح تحدده حدوده، فلا يلتبس بغيره، ولأجل تأكيد وضوح حقائق هذا الدين وتحديدها؛ تجد التعبير عنها بالنور يكثر في هذا الكتاب، ومثاله قوله تعالى: {ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ ﮜ} [الأعراف: 157]، وقوله: {ﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ} [الصف: 8]، والدين حقائق وعقائد وسلوك، ولكنها تهدي المؤمن في مسيرة وجوده، كما تهدي المنارات الوهاجة جوانب الطريق للسائر فيه، فإذا انصرفت النفس البشرية عن هذه الحقائق، وفقدت هذا النور، توزَّعت واختلط عليها الأمر، وصارت إلى ليل الشَّكِّ والضلال.**

**فهكذا أثرت الاستعارة هنا، وأدَّت المراد منها، وهذا هو معنى التفكر في آيات الله، والتدبر في آي التنزيل.**

**ومما هو شديد الصلة بما سبق، ما جاء في قول الله تعالى: {ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ ﭞ} [البقرة: 257]، فالطاغوت: كل ما يُعبد من دون الله كالأصنام والأوثان؛ لأنه يطغى على الإنسان، فيغلو في الكفر والمعاصي، وفي الآية استعار الظلمات للكفر، والنور للإيمان، والمعنى المشترك بين الظلام والكفر هو الضلال، وبين النور والإيمان هوالهداية، فصرح بلفظ المشبه به وحذف المشبه.**

**وقوله تعالى، قبل هذه الآية: {ﰊ ﰋ ﰌ ﰍ ﰎ ﰏ ﰐ ﰑ ﰒ ﰓ ﰔ ﰕ} [البقرة: 256]، يعني: مَن كفَر بالطاغوت وآمن بالله، فقد ثبت على أمره واستقام على الإيمان، فشبه الإيمان الخالص بالعروة الوثقى، في نجاة من يستمسك به، فصرح بالمشبه به دون المشبه.**

**ففي المثال الأول، يستحيل الهدى والضلال نورًا وظلمةً، ثم تبدأ عملية الإخراج المتخيلة من الظلمة إلى الهداية، وما فيها من حركة.**

**وفي المثال الثاني، يصبح الإيمان عروة، ثم تبدأ الحركة المتخيلة في الاستمساك بها، فتؤدي هذه الصورة المجسمة المتحركة إلى تمثيل أوضح، وأرسخ للمعنى الخيالي المجرد.**

**وفي إجراء الاستعارة في المثال الأول، نقول: أنه شبه الكفر بالظلمات بجامع الضلال في كلٍّ، فحذف المشبه واستعار المشبه به للمشبه على سبيل الاستعارة التصريحية؛ لأنه صرح بلفظ المشبه به.**

**والاستعارة هنا أصلية؛ لأن المشبه به اسم جامع، كما أنه شبه الإيمان بالنور، بجامع الهداية في كلٍّ، ثم حذف المشبه واستعار المشبه به للمشبه على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية، ثم إنه في المثال الثاني، شبه الإيمان الخالص بالعروة الوثقى في نجاة مَن يستمسك به، ورمز له بشيء من لوازمه، وهو الاستمساك به، فحذف المشبه به على سبيل الاستعارة المكنية.**

**وقوله تعالى: {ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﮐ ﮑ ﮒ} [إبراهيم: 46]، فالمعنى: ما كان خداعهم وتكذيبهم، لتزول منه هذه الأمور المستقرة الثابتة، التي هي كالجبال في الرسوخ والاستقرار، فاستعار هنا الجبال لما أتَى به الرسول  من المعجزات والبراهين الدالة على صدق رسالته، فصرح بلفظ المشبه به، وحذف المشبه على سبيل الاستعارة التصريحية.**

**كما في قوله تعالى: {ﯘ ﯙ ﯚ ﯛ ﯜ ﯝ ﯞ ﯟ ﯠ ﯡ ﯢ ﯣ} [الشعراء:224- 225]، فقد استعار الأودية للمقاصد الشعرية التي يلخصونها بأفئدتهم ويصوغونها بأفكارهم، وخص الاستعارة بالأودية دون الطرق والمسالك؛ لأن المعاني الشعرية تستخرج بالفكرة والروية، وفيها خفاء وغموض؛ فلهذا كانت الأودية أليق بالاستعارة.**

**وكذلك قوله تعالى: {ﮛ ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ ﮠ ﮡ ﮢ ﮣ ﮤ ﮥ ﮦ ﮧ ﮨ} [البقرة: 81]، فقد صور من يقترف الذنوب ويرتكب الآثام لاعتياده عليها، وعدم استطاعته التخلص منها، وكأن الخطايا قد أحاطت به من كل اتجاه، فيعجز عن النفاذ منها والكفِّ عنها، وشبه هذه المبالغة في اقتراف الذنوب بالشيء يحيط بالشيء، والصفة المشتركة بينهما عدم التخلص في كلٍّ منهما.**

**وهذه الصورة -كما يذكر الفيروزآبادي، في: (بصائر ذوي التمييز)- من بليغ الاستعارات، وذلك أن الإنسان إذا ارتكب ذنبًا واستمر عليه، دفعه إلى إتيان ما هو أعظم منه، فلا يزال يرتقي حتى يُطبع على قلبه، فلا يمكنه أن يخرج عن تعاطيه، وخذ قوله تعالى: {ﮝ ﮞ ﮟ ﮠ ﮡ ﮢ ﮣ ﮤ ﮥ ﮦ ﮧ ﮨ ﮩ ﮪ ﮫ ﮬ} [المائدة: 100]، فإن الآية تعني: لا يستوي الحلال والحرام، فشبه الحلال بالطيب في حلاوته، وتقبل النفس له ترغيبًا فيه، وشبه الحرام بالخبيث في كراهيته، وعزوف النفس عنه تنفيرًا منه، ثم حذف المشبه في كلٍّ على سبيل الاستعارة التصريحية الأصلية.**

**المراجع والمصادر**

1. **القزويني ، زكريا بن محمد القزويني تحقيق: محمد السعدي فرهود ، (الإيضاح في علوم البلاغة) ، طبعة رقم1، سنة النشر: 2001 م**
2. **الجرجاني، عبد القاهر الجرجاني، قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر، (دلائل الاعجاز) ، ط5، مكتبة الخانجي، 2004م.**
3. **أبو موسى، د. محمد محمد أبو موسى، (دلالات التراكيب دراسة بلاغية) ، القاهرة، مكتبة وهبة للطباعة والنشر والتوزيع، 1987م**
4. **المراغي، أحمد مصطفى المراغي، (تاريخ علوم البلاغة و التعريف برجالها) ، القاهرة، مكتبة و مطبعة مصطفى البابي، ط1، 1950م**
5. **فيود ، د. بسيوني عبد الفتاح فيود ، (علم البيان: دراسة تحليلية لمسائل البيان) ، القاهرة، مؤسسة المختار ، دار المعالم الثقافية، الإحساء ، ط 2، 1998 م**
6. **الخوارزمي ، الشيخ يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي الخوارزمي الملقب بسراج الدين السكاكي، (مفتاح العلوم) ، لبنان، مكتبة المقهى، نشر دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية ، 1987م**
7. **الشاطئ، عائشة بنت الشاطئ، (التفسير البياني) ، مكتبة المجلس، الطبعة الأولى، 1962م**
8. **فيود، د. بسيوني عبد الفتاح فيود، (علم البديع: دراسة تاريخية وفنية لأصول البلاغة ومسائل البديع) ،القاهرة، مؤسسة المختار، 2004**
9. **الصعيدي، عبد المتعال الصعيدي، (البغية على الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة) ،مكتبة الآداب، 1999م**
10. **شاهين، كامل السيد شاهين، (اللباب في العروض و القافية) ،القاهرة، الهيئة العامة لشئون الأميرية، 1978م**
11. **القيرواني، ابن رشيق القيرواني، (العمدة في محاسن الشعر وآدابه) ،الناشر: دار الكتب العلمية، 2001م**
12. **أبو موسى، د. محمد محمد أبو موسى، (التصوير البياني) ،القاهرة، مكتبة وهبة للطباعة والنشر والتوزيع، 1997م**